١٤ السيدة زينب صاحبة الرأى والمشورة

السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ كانت عند أهل العزم والتصميم أُمَّ العزائم، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم، وعند أهل مصر والسوادن الطاهرة.. كان يرجع إليها الأئمة الكبار ـ ومنهم أبوها علىّ وأخواها الحسن والحسين ـ فى الرأى والمشورة، فسُميت صاحبة الشورى، وكانت دارها فى المدينة المنورة ملتقى الضعفاء، واسمها نداء المحتاجين، فلُقبت بأم العواجز، وتحوَّل بيتها فى مصر إلى مقر يعقد فيه الوالى لقاءاته بالرعية واجتماعاته مع رجاله تحت إشرافها، فَعُرفت برئيسة الديوان. وكانت فى ساحة الوَغَى وفوق أعواد المنابر بليغة فصيحة، تسيطر على المشاعر والألباب، فوُصفت بأنها سيدة البيان.

تلك هى السيدة زينب، حفيدة الرسول ﷺ، من ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، أشرف نساء الأرض حسباً ونسباً، وابنة الإمام علىٍّ كرَم الله وجهه الذى تربى فى أحضان النبوة، فاقتبس منها النور والهدى، فبقى متصدياً لنشر العلم والفتيا، حتى كان يقول: «سلونى.. سلونى عن كتاب الله تعالى، فوالله ما مِنْ آية إلاَّ وأنا أعلم أنزلت بالليل أو بالنهار».. الإمام على الذى وصفه الرسول الأعظم لابنته الزهراء عند زواجها بقوله: «فوالله لقد أنكحتك ـ أي زَوَّجْتُكِ ـ أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً». والشقيقة الصغرى للسبطينِ الحسن والحسين رضى الله عنهما اللذَّيْنِ كانا أقرب أهل الأرض إلى قلب جدهما الرسول الأعظم، واللذين أوصى محبتهما، وجعل محبتهما من محبته عليه الصلاة والسلام.

وهكذا نجد أنه إن كان فى واحدة من النساء فضيلة، فقد تجمع للسيدة زينب رضى الله عنها الكثير من الفضائل.. ففيها وفاء وصدق، وصفاء ونقاء، وشجاعة

وإقدام، وإباء وشمم، وعلم وبلاغة، وعبادة وتقوى، وعفة وزهد، وإذا تيسرت بطولة من البطولات لواحدة من النساء فقد تجمعت بطولات متعددة فى السيدة زينب، ومنها الإيمان بالمبدأ، وعلو الهمة، واحتمال إنكار الذات، والجهاد فى سبيل الله، وقول الحق، والتضحية والفداء.

هل نحن فى حاجة إلى مزيد؟ ربما.. وأول ما يستوقفنا من سيرتها ـ مسترشدين بما جرت به الأقلام قديماً وحديثاً ـ ميلادها، حيث وُلدت بالمدينة المنورة بعد أخويها الحسن والحسين، فى شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة.. وعلى هذا فقد أدركت من حياة جدها الرسول الأعظم خمس سنوات.. لقيت خلالها من الجد كل عطف وحدب وحنان، ومن الأب والأم كل رعاية واهتمام، حتى تحقق لها مبكراً قبسات النبوة من جانب، ونور الحكمة من جانب آخر، فورثت عن الجد الرسول الأعظم ما لا يحصى ولا يُعد من الفضائل، ومن الأم فاطمة الزهراء التقى والعفاف، والطهارة والهدى. وعن الأب الإمام علىٌّ الفصاحة والبلاغة، والعلم والإيمان، وعن الشقيقين السبطين التضحية والفداء، وإنكار الذات، والإيمان بالمبدأ.. ذرية كريمة، بعضها من بعض.

سماها جدها الرسول الأعظم باسم ابنته زينب، التى كانت قد توفيت قبل ذلك بقليل، وتربت كأخويها الحسن والحسين فى حجر النبوة.. فتفتحت كرامتها طفلة صغيرة على أحداث جليلة، ورجال عظماء، ينشئون خير أمة أخرجت للناس.. لكن هذه الحياة العامرة بنور العلم والإيمان، المزدحمة بالأحداث والأعمال لم تدم.. فقد حَدَثُ جلل هز الأمة من أقصاها إلى أقصاها. وهل هناك حَدَث أكثر جللاً من وفاة جدها النبى ﷺ، لتلحق به أمها الزهراء بأقل من سنة، فيسيطر عليها حزن يملك كل أقطار نفسها، لكنه يجعلها أنضج إدراكاً، وأرهف حساً، وأكبر سناً.. وكيف لا؟ وقد كان عليها أن تعمل بوصية الأم الحبيبة وهى على فراش الموت، بأن تكون لأخويها الحسن والحسين أُمًّا، وللبيت راعية، حتى وإن أعوزتها التجربة فى هذه وتلك.. وهكذا تختارها الأقدار لتحمل الأعباء والمسئوليات وهى لم تزل فى عمر الورود.. حتى إذا شبت وجاوزت مرحلة الصبا إلى الشباب يطلبها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب للزواج، ويوافق

الأب فى غير تردد، وترضى البنت فى غير نقاش، وهل يكون هناك تردد أو نقاش فى أمر عبد الله بن جعفر، أول مولود ذكر فى الإسلام؟ وأصغر مَنْ بايَعَ النبى ﷺ وقُبلت بيعته، إذ كان لم يبلغ العاشرة، حتى قال النبى ﷺ عنه وعن أبيه جعفر: «اللهم اخلف جعفراً فى أهله، وبارِكْ لعبد الله فى صفقة يمينه».

وكان يلقب بين المؤمنين بقطب السخاء، حتى إنه يُرْوَى عن جوده وكرمه أن امرأة سألته شيئاً فأعطاها أضعاف ما طلبت، فقيل له: « ياعبد الله، إنها لا تعرفك، وكان يرضيها منك اليسير.. فقال: «إن كان يرضيها منى اليسير فإنى لا أحب إلا الكثير، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى».. من هذا الرجل المناسب يتم زواج السيدة زينب، لا لتنتقل إلى بيت زوجها الحالى، ولكن لتبقى فى بيت أبيها فى المدينة المنورة، وتنتقل معه إلى الكوفة، حيث ولى أمر المسلمين ليعيشا فى مقر الخلافة فى رعاية الأب أمير المؤمنين، حيث كان يرجع إليها، ويؤمن بصواب رأيها، وصِدْق حدسها.. وتنجب «زينب» لابن عمها ذُرية صالحة، لم يبق منهم غير اثنين: «على» و «أم كلثوم».

وإذا كانت هذه هى النشأة فى بيت الجد والأب والزوج، حياة يظلها الطهر والإيمان فطبيعى أن تنصرف السيدة زينب إلى العبادة. فنراها صورة جليلة لمن قاما بتربيتها، ونموذجاً لحياة فاضلة كريمة.. ونراها صَوَّامَةً قوّامة، قانتة تائبة، تقضى أكثر ليلها متهجدة.. تالية للقرآن، مبتهلة، داعية خاشعة، تردد هذا الدعاء الذى لقنه إياها الجد، الرسول الأعظم: «يا من لبس العزَّ وتردَّى، سبحان من تقطف بالمجد وتكرم، سبحان من لاينبغى التسبيح إلا له جل جلاله، سبحان من أحصى كل شىء مدداً لعلمه وخلقه وقدرته، سبحان ذى العزة والمنِّ والنعم، سبحان ذى القدرة والجود والكرم، ـ اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك... باسمك الأعظم، وكلماتك التامات، أن ترحمنى يا أرحم الراحمين».

وعن أبيها الإمام على كرم الله وجهه ترث هذا الدعاء: «ياعمادَ مَنْ لا عمادَ له، وذخر من لا ذخر له، يا سندَ من لا سند له، يا مَنْ لم يكن مثله قبل ولا بعد، ولا كفو، ولاند، ولا نهاية ولاحد، بحرمة اسمك ارحمنى برحمتك ياأرحم الراحمين».

ولم تصرفها عبادتها ونسكها وابتهالاتها وخشوعها عن التفكير فى آيات الله فى خلقه، أو تلقى ما يسمح به زمانها من علم وفكر، وكيف لا تهتم بالعلم والتفكير، وقد سمعت عن مكانة العقل والعلم مما نُقل عن جدها الرسول الأعظم حيث قال: «العلماء ورثة الأنبياء» وقال: « لَموتُ قبيلة أيسر من موت عالم». وسمعت من أبيها قوله: «ثلمة الدين.. مَوْتُ العلماء». وقبل ذلك سمعت قول الحق تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.. هذا إلى جانب أنها تربت فى مدينة العلم النبوى، وصحبت أبيها الإمام إلى يوم استشهاده، فنهلت من علمه الكثير، وعاشت حينًا من الدهر مع أخويها: الحسن والحسين، فنهلت منهما الكثير أيضًا، ولذلك خاطبها ابن شقيقها علىٌ زين العابدين بن الحسين، رضى الله عنهما: «أنت يا عَمَّتَاهُ بحمد الله عالمة غير معلمة، وفهمة غير مفهمة» يقصد بذلك كما يقول أحد مؤرخيها الأستاذ على أحمد شلبى فى كتابه عنها «إن علمها هو مما مُنِحَ وفُتح به على رجالات بيتها الرفيع، وأفيض عليها إلهامًا».

ولذلك فقد روت الحديث عن أمها، وعن أبيها، وعن أخويها.. كما روت عن أم سلمة، وأم هانئ.. ولذلك رَوَى عنها ابن عباس، وعلى زين العابدين، وعبد الله بن جعفر، وفاطمة النبوية رضى الله عنهم أجمعين.

ومما سجله عنها مؤرخوها للدلالة على كثرة علمها وتبحرها هذه القصة التى تُروَى بأن أخويها الحسن والحسين كانا يتذكران ما سمعاه من جدهما النبى صلى الله عليه وسلم من علمٍ، فدخلت عليهما السيدة زينب مستأذنة وملقية عليهما السلام، وجلست معهما وقالت: « سمعتكما تقولان إن جدى ﷺ كان يقول: «الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّن وبينهما مُشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه. ألا فإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حِمَى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجسدُ كُله، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجسدُ كله.. ألا وهى القلب» اسمعا يا حسن ويا حسين، إن جدكما رسول الله ﷺ ذكر ثلاث درجات فى الدين: الحلال، والحرام، والمشتبه.. أمَّا الحلال فهو ما أحله الله تعالى، بأن جاء القرآن الكريم بحله، وبَيَّنهُ

الرسول ﷺ فى بيانه الواضح، كحل الشراء والبيع، وإقامة الصلاة فى أوقاتها. وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وترك الكذب، والنفاق، والخيانة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأما الحرام فهو ما حرَّمَهُ القرآن الكريم، وهو على النقيض من الحلال. . ويبقى المشتبه، وهو الشىء الذى ليس بالحلال ولا بالحرام. . والمؤمن الذى يريد لنفسه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، ما عليه إلا أن يؤدى ما أوجبه عليه رب العالمين، ويسير فى طريق القرآن الكريم، ويقتدى بالنبى الكريم، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضِه وأصبح دينه نقياً.

وأما مَنْ سَارَ فى طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرَّمه الله. وإن لكل ملك حِمىً بجوار ملكه، وحمى ملك الملوك محارمه، ولقد قال النبى ﷺ: «اتق المحارم تكن أعْبَدَ الناس»، وإن الله تعالى أودع الإنسان مضغة وجوهرة، إذا صلحت فإن الجسد يكون صالحاً نقيّاً، وهى القلب، فإذا كان سليماً فإن صاحبه يكون يقظاً لأمور دينه ومبادىء شريعته. يرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة، ومن سلك هذا السبيل يكون يوم القيامة من الفائزين. إن حياتنا فى الدنيا مرحلة من المراحل التى توصل الإنسان إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار، وليس بعد الموت عقاب، ولا بعد الدنيا إلا الجنة أو النار.»

وما إن انتهت من حديثها حتى قال الإمام الحسن: «أنْعِمْ بِكِ يا هاشمية. . حقّاً إنكِ من شجرة النبوة المباركة، ومن معدن الرسالة الكريمة».

وأمَّا عن زهدها ـ رضى الله عنها ـ فقد كانت مضرب الأمثال فى ذلك، برغم غنى زوجها وثرائه، ولعلها فى ذلك كانت تلتزم بالحكمة القائلة بأن الزاهد من يحب خالقه ويبغض ما يبغض خالقه، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت إلى حرامها. . أو بحديث جدها الرسول الأعظم «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين، وزهده فى الدنيا، وبصره عيوبه». وقد رأت ما عليه أمها الزهراء، التى كانت تفترش حصيراً من سعف النخيل لنومها، والتى كانت تلبس الخشن من وبر الإبل، وتطحن الشعير بيدها حتى تدمى، وتعجن وتخبز، وتقوم بعمل البيت كله فى غير كلل.

وقد رأت أيضاً ما كان عليه أبوها أميرالمؤمنين على بن أبى طالب الذى كان يرقع مدرعته ـ أى ثيابه عند الخياط حتى أحصى فيها سبعين رقعة، حتى قال «والله لقد رقعت مدرعتى هذه حتى استحييت من راقعها». ولم يكن لديه يوم بويع بالخلافة غير حصير صغير كان يجلس عليه مفضلا الآخرة على الدنيا. . فلا عجب والأمركذلك أن تكون السيدة زينب زاهدة، وأن تكون مثالاً ونموذجاً لهذا الزهد، وأن يصل الزهد عندها حَدًّا جعلها تزهد فى المال والولد والبيت والزوج، وراحة البال، وهدوء النفس، لتلحق بأخيها الإمام الحسين مؤثرةالآخرة على الدنيا ساعية إلى الجهاد فى سبيل نصرة الحق، ولسان حالها يقول: «الآخرة خير وأبقى».

ويضاف إلى خصلة الزهد عندها خصلة أخرى هى الصبر على المكاره، ولعلها ورثت هذه الخصلة عن جدها الرسول الأعظم، الذى بلغ من صبره على مكاره قومه أن خاطبه القرآن الكريم: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ها هِىَ ذى حفيدته يصيبها من أحداث الزمان ما لو أصاب الجبال الرواسى لَتَضعضعت جوانبها، وتصدعت أركانها من الهول والقسوة، إلا أنها قابلت كل ذلك بقلب مطمئن، ممتثل لأمر الله تعالى، مؤمنة بقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2].

أو الحديث جدها الرسول الأعظم حيث قال: «الإيمان شطران: شطر صَبر، وشطر شُكر».

كانت بداية صبرها على المكاره حين فتحت عينيها بفقدان أحب الأحباب الجد والأم، حتى إذا قطعت من الزمن سنوات تفجع باستشهاد أبيها الإمام وهو على قمة الدولة الإسلامية. . وتتوالى المآسى والنكبات والكوارث بمرور الأيام، بضيعة معاوية وأعدائه، حتى يكون من ضيعته تدبيرموت شقيقها الحسَن رضى الله عنه مسموماً على يد زوجته الجعدة اللعينةالتى تواطأت مع ابن أبى سفيان. وتختتم

(١) سورة الكهف ـ الآية السادسة. وباخع نفسَك: قاتلها غَماً وحَسْرَةً.
(٢) سورة البقرة ـ من الآية ١٧٧

سنوات حياتها بمأساة كربلاء، يوم شاهدت بعينها استشهاد الشقيق والإبن وابن العم وابن الشقيق من خيرة رجال المسلمين.

حقاً إذا كانت كربلاء كَرْباً وبلاءً على المسلمين عامة، فقد كانت أشد كرباً وأقسى بلاءً على السيدة زينب خاصة.. ففى كربلاء قُتل لها فى يوم واحد شقيقها الإمام الحسين، وستة من إخوتها لأبيها هم: «العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد، وأبو بكر، وثلاثة من أبناء شقيقها الحسين، وقيل إنه قُتل لها ولدان من أبنائها.. وبقية أسرة أبيها من الرجال، ولم يبق سوى ابن شقيقها علىّ زين العابدين بن الحسين الذى أنقذه مرضه من الموت.. يُضاف إلى هؤلاء من استشهد من قبل فى الأيام الماضيه، وفى مقدمتهم ابن عمها مسلم بن عقيل بن أبى طالب على أيدى زبانية يزيد بن معاوية».

وبرغم ما حدث يوم كربلاء الذى كان فادحاً وأليماً فإن السيدة زينب كانت مثالاً للصبر والتضحية والفداء، بل والثبات والشجاعة والإقدام، حيث كانت هى السيدة الرائدة يوم كربلاء، فكانت تواسى المظلوم، وتسهر على المريض، وتضمد جراح المصاب، وتقى العطشى، وتستثير هَممَ المجاهدين. وننظر إلى موقفها فى ذلك اليوم، حيث ترى ابن شقيقها على زين العابدين، وهو الوحيد الذى بقى من الرجال حين عظم الأمرعليه، واشتد بعد استشهاد أبيه وإخوته وأبناء عمومته، هنا تقول له عمته السيدة زينب فى ثبات نادر: «مالى أراك تجود بنفسك يا بقية جدى وأبى وإخوتى؟! والله إن هذا لَعَهْدٌ من الله لجدِّكَ وأبيك، إنه أخذ الله ميثاق أُناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون فى أهل السموات، أنهم يحملون ويجمعون هذه الأشلاء المقطعة، والجسوم المضرجة بالدماء فيدارونها، ويَنْصبون علماً لقبر أبيك الشهيد لا يمحى رسمه، ولا أثره ولا يزداد إلا عُلواً على مر الأيام وكَرِّ الليالى.. ويتحدون أئمة الكفر وأشياع الضلالة فى محوه وطمسه، فلا يزداد إلا ظهوراً».

ولننظر إليها وهى تلقى نظرة أخيرة على الأشلاء المقطعة لشقيقها الإمام الحسين، وكيف اختلطت دماؤه الطاهرة بالرمال، وفى الوقت نفسه تحين منها نظرة عابرة إلى ما بقى على قيد الحياه من آل البيت فلا تجد إلا النساء والأطفال ـ وهنا

يعلو صوتها حتى لكأنه يشق عنان السماء من قوة بيان تأثيره: «يا محمداً، صلى عليك مليك السماء.. هذا حُسين بالعراء مقطع الأعضاء والأجزاء، وبناتك أصبحوا سبايا.. إلى الله المشتكى، وإلى محمد المصطفى، وإلى على المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء وإلى حمزه سيد الشهداء.. يا أصحاب محمد، هؤلاء ذرية المصطفى يُساقون سوق السبايا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا بِأَبِى مَنْ أضحى معسكره يوم الاثنين منها، بأبى من لاغائب فيرجى، ولا جريح فيداوى، بأبى من نفسى له الفدا، بأبى المهموم حتى قضى، بأبى العطشان حتى مَضَى، بأبى من شيبه يقطر بالدماء، بأبى من كان جده المصطفى».

ومن كربلاء يسير الموكب الحزين إلى الكوفة، والغريب أن يخرج أهلها لاستقباله أبناء علىٍّ كرم الله وجهه، الذى خذلوه من قبل، والأغرب أن يقدم أهلها الطعام والشراب لأفراد هذا الموكب الذى قُتِلَ رجاله، وعلى رأسهم الإمام الحسين فتبادرهم السيدة فاطمة النبوية قائلة: «يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام». ذلك لأن آل البيت لا تجوز عليهم الصدقات.. وتومئ السيدة زينب موافقة ابنة شقيقها طالبة من يقدم ذلك بالامتناع. والأغرب من ذلك أن تأخذهم دهشة ومفاجأة.. حيث يرون بنات أمير المؤمنين على بن أبى طالب يدخلون الكوفة غبر عفر، سبايا وأسرى.. فتنعقد منهم الألسنة خشية من جلال الموقف.. متناسين متجاهلين تقاعسهم أيام أن حشد الطاغية يزيد ورَجْلُه المتعطش للدماء ابن زياد. وهنا تقف السيدة زينب شامخة الوجه منتصبة القامة، تكشف ما جيل عليه أهل الكوفة من نفاق: «الحمد لله، والصلاة والسلام على أبى محمد وآله الطيبين الأخيار، أمَّا بعد؛ يا أهل الكوفة، يا أهل الخداع والغدر، أتبكون اليوم؟ فلا رَقَأَت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها منْ بَعْد قوة أنكاثاً، تتخذ من إيمانها دَخَلاً مكراً بينكم، ألا أهل فيكم إلا الصَّلف (التكبر) والكذب، والشنف والتبغض، وملق الإماء، وعجز الأعداء». أتبكون وتنتحبون؟ أى والله، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلا، فقد ذهبت بعارها وشنَّارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً، وأنى يرمضون بعد قتل سليل خاتم النبوة، ومَعْدِن

الرسالة.. فتعساً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعى، وتبت الأيدى، خسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضُربت عليكم الذلة والمسكنة،.. ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أى كيد لرسول الله فَرَيْتم، وأى كريمة له أبرزتم، وأى دم له سفكتم، وأى حرمة له انتهكتم.. لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال وهداً...».

وطبيعى أن يتأثر كل من سمع كلمتها، التى كشفت الكثير، حيث أدركوا فداحة هذا الحدث الذى تحاسبهم عليه الأجيال.. حيث تركوا أبناء رسول الله لهذه الطغمة الباغية تقتلهم وتمثل بجثثهم وتسبى نساءهم، وتسوق أطفالهم.. حدث هذا لأن أهل الكوفة خذلوهم.

ويتكرر هذا الموقف العصيب حيث يكون الموكب عند أمير الكوفة عبيد الله بن زياد.. اليد الباطشة ليزيد بن معاوية، حيث استغل الأخير كراهيته للإمام الحسين ورغبته فى أن يقدم لأمير المؤمنين ما يثبت أقدامه فى الكوفة.. وها هى ذى السيدة زينب تلتقى وجهاً لوجه مع قاتل شقيقها الحاقد عليه ابن زياد.. الذى يبتدرها قائلا: «الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وكَذَّبَ أُحْدُوثتكم». فترد عليه السيدة زينب رضى الله عنها فى ثبات وتجلد: «الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه ﷺ، وطهرنا من الرجس تطهيراً.. إنما يفتضح الفاجر، ويكذب الفاسق وهو غيرنا». ويرد ابن زياد: كيف رأيت صُنع الله فى بيتك وأخيك؟ وترد السيدة زينب: ما رأيتُ إلا خيراً.. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم. فانظر كيف أنت يومئذ ثكلتك أمك يا ابْنَ مرجانة» وهنا يشتد حنقه وغيظه حتى لا يستطيع السيطرة على نفسه أو مشاعره، فيقول متشفياً: لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة، والمردة من أهل بيتك! فقالت له: لَعَمْرِى، لقد قتلت كهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى. فإنَ كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت.»

ويتكرر هذا الموقف فى مجلس يزيد بن معاوية أمير المؤمنين.. بعد انتقال الموكب إلى مقر الخلافة بالشام.. وقد جئ برأس الإمام الحسين رضى الله عنه، ووضع بين يديه فى إناء.. ليوجه إليه الحديث وكأنه (جَبٌّى) فيضرب جنبيه بكلتا

يديه متشفياً وقائلا:

ليت أشياخى ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وقْعِ الأسَل

فترد عليه السيدة زينب: أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء فأصبحنا نُساقُ كما يساق الأسارى، أن بنا هواناً على الله، وَبِكَ كرامة، وأن هذا لعظيم خَطَرِكَ عنده فشمخت بأنفك، ونظرت فى عِطْفكَ، تضرب أصدريك فرحاً، وتنفض مذوريك مرحاً؟! أمن العدل يا بن الطُّلَقَاء تخديرك حرائرك وإماءَك، وسَوْقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا، هُتكت ستورهن، وأبديت وجوههن؟! ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء.. فَكِدْ كيدك، وَاسْعَ سَعْيكَ، وناصب جهدك، فوالله لاتمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدَنا، ولا تدحض عنك عارها. وهل رأيك إلاَّ فند، وأيامك إلا تتمدد، وجمعك ألا تبدد يوم ينادى المنادى.. ألا لعنة الله على الظالمين. ثم ترد عليه ببيت من الشعر قائلة:

لا هَلُّوا واستهلو فرحاً ثم قالوا يايزيد لا تشل

ولم يستطع الطاغية يزيد أن يقاطعها برغم ماهو عليه من جبروت وقسوة، ومافيه من سلطان وهيبة.. بل ظل مشدوها، حيث افتضح أمره ولم يجد ما يقوله سوى:

يا صيحة تُحْمَدُ مِنْ صوائح ما أهْوَنَ النوْحَ على النوائح

وهكذا كانت السيدة زينب رضى الله عنها أول سيدة فى الإسلام شاءت لها الأقدار أن تقوم بهذا الدور السياسى على مسرح الأحداث.. وهى سيدة جريحة مطحونة من هول المأساة.. وهكذا أصبح موقف السيدة زينب وقوة تعبيرها عنه.. جعل من كربلاء مأساة دامية على مر الزمن.. وتوالى الأجيال.

وقد يسأل سائل: كيف كانت هذه السيدة ـ وهى المرأة العربية التى لم تخرج من البادية ـ على هذه الصورة من رباطة الجأش، وقوة العزيمة.. وفصاحة اللسان وقوة البيان؟

إن لذلك أسباباً وأسباباً..منها ماتتمتع به من مكانة فريدة، وينبع ذلك من نسبها وحسبها

وبيئتها. . ومنها ما عُرف عنها أيضاً من حُبّ للعلم والمعرفة، وكيف لا وقد رأينا ثقافتها من أحاديثها ومناقشاتها للملوك والأمراء، وهى فى أسوأ الظروف وأقسى الأحوال.

وهناك أسباب جعلت السيدة زينب رضى الله عنها محوراً لهذه المأساة الدامية، وخيرمعبر عن وقائعها، الأمر الذي جعل كل المصادر التي تناولت سيرتها أو سيرة شقيقها الإمام الحسين لا تخرج فى مادتها عمَّا قالته السيدة زينب كمصدر موثوق به.

ولعل موقفها هذا جعل يزيد نفسه يتردد ويضعف، ويرجو أن يغريها بالمال، فعرض عليها رد أموالها التى نُهبت منها ومن زوجها وأبنائها. وهنا ترد عليه قائلة فى إباء وشمم: «يايزيد، ما أقسى قلبك!! تقتل أخى وتعطينى المال!! والله لا كان ذلك أبداً».

ويتناقل العرب أخبارها فيزدادون إعجاباً بموقفها وثباتها، حتى كانت القبائل تنتظرها فى طريق العودة إلى المدينة المنورة، وتظل حشودهم أياماً حتى يَروَنْ عقيلة بنى هاشم التى استطاعت أن تحقر من شأن ابن زياد فى الكوفة، وابن معاوية فى الشام.

ويستقر بها المقام فى المدينة المنورة، ويلتف حولها الناس، فتندد بعدوان يزيد بن معاوية، وبَغْى عبيد الله بن زياد، وطغيان أعوانهما على آل البيت. . فأثارت ثائرة الجميع، وهيجت الألباب والمشاعر، وألهبت بمنطقها السياسى الجماهير على حزب الشر. . وهنا خشى يزيد على نفسه، فأمر أن تغادر المدينة. . إلى حيث تشاء من البلاد فى أرض الله، فيما عدا الحرمين الشريفين.

وطبيعى أن ترفض الرحيل من بلد الأجداد والآباء والأحباب، وأن يتمسك بها الناس، فقد رأوا فى أحاديثها تنفيساً عمَّا يكنونه ليزيد وأعوانه وزبانيته من كُرْه واحتقار. . وتتدخل ابنة عمها عقيل قائلة: «يابنت عماه، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء. . فطيبى نفساً وقَرِّى عيناً، وسيجزى الله الظالمين. . . أتريدين بعد ذلك هواناً؟! ارحلى إلى أى بلد آمن».

وتختار السيدة زينب مصر دارَ إقامة لها. . لما سمعته عن أهلها من محبة ووقاء لآل البيت، ولما عرفته من أن مصر كنانة الله فى أرضه، لها من السمات والسماحة ما يجعلها مكاناً آمناً لأولياء الله. . فتجئها مصحوبة بنفر قليل من آل بيتها، وتبقى بها ما يقرب من عام، فيه تمهد أرض الدار الآخرة، يوم لقاء ربها. . وتكون دارها هى قبرها، وهو مسجدها الآن.

* * *